الفصل الثاني

الرب أو المجموعة؟

«إذا كان الرب معنا، فمن يمكنه أن يكون ضدنا؟».

(الرومان: 8:31)

Romans 8:31

منذ ظهر مصطلح غسيل الدماغ عام 1950م، أصبح مفهومه ينمو خفيًّا في الثقافة الشعبية، فظل مندسًّا في الأفلام وقصص الإثارة، وقد استخفت به الأوساط الأكاديمية على نحو متزايد، وكان يطفو على السطح في الوعي الشعبي عادة في ردٍّ على بعض الصدمات الشديدة، أو ملاذًا أخيرًا للمعلقين لتفسير ما تعذَّر تفسيره، ولا تكون مثل هذه الصدمات عرضية؛ بل يسببها شخص أو أشخاص، تقودهم عادة دوافع سياسية أو دينية، وفي هذا الفصل سوف أسأل عن مثل هذه الدوافع، وسياقها الاجتماعي والنفسي الذي تزدهر فيه، ما يجعلها خطرة جدًّا.

القوة الملعونة

بالنسبة إلى الغرب، فإن أسوأ هذه الصدمات حدثت في الولايات المتحدة الأمريكية في 11 أيلول عام 2001م، عندما ضربت طائرة نفاثة محملة بالركاب أحد برجي مركز التجارة العالمي في نيويورك؛ افترض العالم في الدقائق القليلة الأولى أن ما حدث هو حادث مروع، إلى أن اصطدمت طائرة أخرى بالبرج الثاني، ثم ضربت طائرة ثالثة مبنى وزارة الدفاع الأمريكية؛ البنتاجون، وأسقطت طائرة رابعة في بنسلفانيا، عندما حاول الركاب الذين سمعوا من خلال الهواتف الجوالة عن الهجمات الباكرة، التغلب على خاطفيهم.

انهار برجا مركز التجارة العالمي كلاهما، ووصل عدد القتلى إلى الآلاف. لن ينسى الذين سمعوا القصة مثلي، وشاهدوها تتوالى أحداثها أمام أعيننا في بث مباشر على التلفاز، بسهولة أصوات المراسلين المرتجفة التي تعبر عن عدم تصديق ما يشاهدونه وهم يسعون لفهم ما يحدث. تركت أحداث 9/11 بالنسبة إلى المعنيين بما حدث، وإلى المواطنين الأمريكيين، ندوبًا مروِّعة.

في الأيام الأولى التي تلت المأساة، إلى جانب البحث عن الجثث وعن أناس يُلقى عليهم اللوم، وصفت بعض الأصوات أحداث 9/11 بأنه عمل شرير فريد من نوعه، لكنه بالتأكيد -كما أشار آخرون سريعًا- لم يكن كذلك؛ لم يقتصر الأمر على أنه قد جرت محاولة سابقة لتدمير مركز التجارة العالمي (ارتبطت بالقاعدة، وهي المجموعة الإسلامية المتطرفة نفسها التي ألقي عليها اللوم في حادثة 9/11)، بل أن أمريكا عانت سابقًا الإرهاب على أرضها، ومن قِبَل مواطنيها أنفسهم. قتل التفجير الذي قام به تيموثي ماكفي Timothy McVeigh بدوافع سياسية لمبنى حكومي في أوكلاهوما في 19 أبريل 1995م، 168 من الموظفين الحكوميين والمدنيين، وأدى إلى إصابة ما يزيد على 500. وكان هجوم ماكفي الأحدث فقط في سلسلة الإرهاب الذي تدفعه دوافع سياسية و/أو دينية، وهي سلسلة قد امتدت في أنحاء العالم إلى ما قبل عام 1950م؛ أثارت عناصر هذه السلسلة المظلمة مجددًا في كل مرة النقاش حول غسيل الدماغ منذ أن أصبح هذا المصطلح متاحًا؛ ولم يكن 9/11 استثناء.

الدين والسياسة

«ما يعوض ذلك هو فقط الفكرة واعتقاد غير أناني بالفكرة؛ شيء يمكنك نصبه، والانحناء أمامه، وتقديم القرابين له».

جوزيف كونراد Joseph Conrad، قلب الظلام

Joseph Conrad, *Heart of Darkness*

بعد مرحلة ما بعد الإصلاح في الغرب، أصبحت السياسة والدين تميلان إلى الانفصال بعضهما عن بعض بصورة متزايدة (على الأقل من حيث المبدأ) كما هو منصوص عليه؛ على سبيل المثال، في دستور الولايات المتحدة والسياسة الفرنسية في فصل الكنيسة عن الدولة[1]، لكن تنظيم القاعدة أظهر أن الأمر ليس كذلك في عديد من الدول. توصف هذه المنظمة المختلفة، التي رأسها أسامة بن لادن، بأنها (إسلامية متطرفة)، لكن فضلًا عن هدفها في نشر تصورها الخاص عن الإسلام، فقد صرحت أيضًا عن أهداف سياسية ترتبط بالحد من السيطرة الغربية وخاصة سيطرة الولايات المتحدة. فمثلًا، يعد إعلان بن لادن عن هدفه المتمثل في إخراج القوات الأمريكية من المنطقة العربية هدفًا سياسيًّا، تدفعه جزئيًّا على الأقل أسباب دينية بكون الأمريكيين يدنسون أرضًا مقدسة. يتشابك الدين والسياسة كثيرًا في هذا الصراع وغيره من الصراعات الأخرى بحيث يصبح من المستحيل الفصل بينهما.

كثيرًا ما يعلق المعلقون العلمانيون في بريطانيا الذين اعتادوا على شكل مسالم من الدين، على الوحشية الغريبة للصراعات الدينية، لكن الأمر موضع خلاف إذا كان الدين وحده هو الملام في هذه الحالة، حتى إن التمييز بين الدوافع الدينية وغيرها من الدوافع يمكن أن يكون صعبًا؛ فمثلًا في إيرلندا الشمالية التي ما تزال تضرب مثلًا على الصراع الديني التوراتي، الطائفتان الرئيستان متنافرتان بفعل مجموعة معقدة من القوى الدافعة التي تشمل اهتمامات حول المكانة، وحقوق الإنسان، والالتزامات الديموقراطية، إضافة إلى مخاوف قديمة من القمع أو السيطرة أو حتى الاستئصال.

لكن يبدو أنه لا يمكن إنكار أن هناك دوافع معينة، ومنها المثل الدينية والسياسية التي يمكنها أن تدفع البشر لارتكاب فظائع مروعة بعضهم ضد بعض.يبدو أن هذه الدوافع، على الرغم من أنها ظاهريًّا مختلفة جدًّا (قارن القتال من أجل الحرية في الثورة الفرنسية مع القومية الباسكية أو قتال القاعدة في سبيل الله)، تشترك بملامح معينة؛ إذ إنهم يستخدمون أفكارًا مجردة، وغامضة، ومحمَّلة بالقيم، ويربطونها بعواطف قوية، ويستعملون التركيبة الناتجة لتبرير تشويه سمعة الناس الذين لا يتفقون معهم.

الأفكار

يستحضر كل من السياسة والدين أفكارًا مركزية معينة (الحرية، الدولة، الله)، تكون مجردة للغاية، وسوف أشير إليها على أنها (مقدسة وتجريدية). تكون الأفكار المقدسة غامضة جدًّا بحيث إنها غالبًا ما تُفسَّر بطريقة مختلفة جدًّا من قبل الأفراد المختلفين (يصف المنظرون السياسيون الأفكار السياسية المقدسة، مثل الحرية والمساواة، بأنها (متنازع عليها أساسًا))[2]، وهذا الغموض يجعل تحديها أمرًا صعبًا في المناقشات المنطقية؛ قد يكون المشاركون في مثل هذه المناظرات يتحدثون في الواقع بأهداف متقاطعة. كثيرًا ما يستخدم المتحدثون (تعميمات براقة)[3] لإخفاء اللاواقعية، أو المفاهيم الخفية أو الشياطين الأخرى الكامنة في تفاصيل أهدافهم وغاياتهم، أو لأنهم يأملون في استثارة استجابة عاطفية من مستمعيهم، وهو ما سيزيد من مستوى الالتزام ببرامجهم. علاوة على كونها مجردة وغامضة، فإن الأفكار التجريدية المقدسى محمَّلة بالقيم (انظر الفصل التاسع للمزيد حول هذا الموضوع). وحيث يُنظر لها

علـى أنهـا مهمة جدًّا في حد ذاتها، فإنها تأتي محملـة بمجموعة ضخمة من العواطف المتراكمة، وتشجِّع الشعور بالتفوق عند المؤمنين.

العواطف

فـي حين أن الطبيعة المجردة للأفـكار التجريدية الغيبية تتيح لأتباعها تجنب التركيز على النواحي التطبيقية الصعبة (مثل كيف تتأكد مما يريده الله، أو متى بالضبط ستتحقق الحرية)، فـإن هـذه المفاهيـم لا تنفصل كليًّا عن الواقع، بل هي على العكـس من ذلك؛ إذ تسـتمد قوتها من كونهـا مرتبطـة بأمثلة محددة مثيرة للعاطفة بصورة كبيرة. يميل دماغ الإنسـان إلى ربط منبهين يشـعر بهمـا في الوقت نفسـه، وسـوف يسـتفيد المتحـدث الماهر مـن ذلك، فيحاول -على سـبيل المثال- الربط بين ظلم متخيل أو حقيقي مع فكرة تجريدية؛ ها هو جون ملتون John Milton يُعَيِّد الحرب الأهلية الإنجليزية يربط بين سؤال دستوري مجرد نوعًا ما -هل للبرلمان الحق في إعدام الملك شارلز الأول- مع صور تذكارية للحرب، والدمار، والذبح:

«ما الذي يملكه ملك وطني ليدافع عن نفسه، وهو ملزم بالعديد من المواثيق والمزايا وكلمات الشرف برفاهية شعبه؛ لماذا من خلال احتقاره للقوانين جميعًا وللبرلمانات بعد سبع سنوات من الحرب وقتل أفضل مواطنيه، وبعد أن قُهر وسجن، يظن أنه سينجو دون حساب لأنه شيء مقدس؟ يجب احترامًا له أن يترك آلاف من المسيحيين الذين قتلوا غير محسوبين، وقد لوَّثوا بجثثهم المذبوحة جميع أرجاء الأرض، مطالبين بالثأر من الشخص الحي الذي كان يجب أن يكون قد أعطاهم حقوقهم؟».

ملتون، Milton, *The Tenure of Kings and Magistrates*, p. 285.

العواقب

الأفكار المقدسـة ملطخة عامة بالدم، ومع كونها تُحسَـب بأنها أثمن من حياة الإنسان، فهي أيضًا تسهل العمليات التي بوساطتها تُبرَّر أولًا الغايةُ الوسيلةَ، وثانيًا، يمكن النظر إلى الأشخاص الذيـن لا يقبلـون سـيادة الأفكار بأنهم أحط من البشـر[4]، بعبارة أخرى، تشـجع الأفكار المقدسـة التفكيـر الشـمولي، كما وصفه روبـرت ليفتون (انظر الفصـل الأول)؛ لذا يمكن اسـتخدامها -بل

كثيرًا ما تستخدم- لتبرير الأعمال الإرهابية. بالنسبة إلى الضحية، أو إلينا نحن المشاهدين، قد لا يمكن تخيُّل أن البشر يمكن أن يقوموا بأشياء مثل هذه للآخرين؛ فكيف يمكنهم الطيران بطائرة والدخول بها عمدًا ببرود في ناطحة سحاب، أو تفجير فندق، أو النظر مباشرة في عيني طفل ثم إطلاق الرصاص في رأسه؟

تلمُّسًا للتفسيرات نستعمل عبارات مثل شرير، أو مجنون، أو مغسول الدماغ؛ إذا شعرنا بوجود عامل متحكم. وإن رد فعلنا يكون عدائيًّا، وأحيانًا قمعيًّا، ونرمي بتهديدات خارجية واضحة تعزز بدورها تقوية الالتزام العاطفي لدى الإرهابيين.

من الملاحظ أنه في إنجلترا، وهي أمة تضمنت نظرتها إلى نفسها (التي قد تكون دقيقة أو غير دقيقة) منذ أمد بعيد التسامح، وكذلك النفور من المشاعر الجياشة، ابتعد الدين الأساسي بصورة متزايدة عن ذلك النوع من الصخب الإنجيلي المرتبط بالرؤى العظيمة. ومن هذا المعنى، خدم انعدام الثقة بالأفكار الكبيرة إنجلترا خدمة جيدة؛ إذ كان آخر صراع فكري مذهبي واسع النطاق كان فيه للمثل الدينية المجردة دور أساسي في العام 1688م، عندما اشتبك وليام من أورانج البروتستانتي مع الملك الكاثوليكي جيمس James السابع (في أسكتلندا) والثاني (في إنجلترا). كنيسة إنجلترا غارقة اليوم بالتفاصيل؛ فهي تعمل جنبًا إلى جنب مع الخدمات الاجتماعية والمبادرات الحكومية لدعم المجتمعات المحلية بمجموعة هائلة من الأساليب المبتكرة، بدءًا بإنشاء مراكز في المناطق المحرومة لتعليم مهارات الحاسوب والمهارات الأخرى المرتبطة بالمهن، إلى زيارة السجون ومساعدة الأكثر فقرًا في المجتمع، فما النتيجة؟ تقوم كنيسة إنجلترا الأساسية التي يزدريها كثيرون لافتقارها إلى العاطفة بكثير من أفعال الخير (أكثر مما يقوم به عديد من منتقديها)، ومن النادر جدًّا أن يقتل شخص في إنجلترا بسبب معتقده.

وكما في الدين، كذلك الأمر في السياسة؛ فبريطانيا -زمن كتابة هذا الكتاب- تعيش مرحلة تشهد القليل من الاختلافات المذهبية الفكرية الرئيسة بين السياسيين في التيارات السياسية الرئيسة، ويبدو قادة الدولة أقل اهتمامًا بالرؤى العظيمة من اهتمامهم بالطرائق المعقدة لإدارة الحياة اليومية. يشكو كثير من الناس أن ذلك يجعل السياسة أمرًا مملًّا والمواطنين غير مبالين، بحيث يجد الشباب على وجه الخصوص منافذ أخرى لتصريف طاقاتهم؛ هل هذا أمر سيئ؟ ربما، ولكن عندما تصبح السياسة أمرًا مثيرًا، تكون النتيجة غالبًا دموية. عندما ينجرف الناس منفعلين في اتباع قضية نبيلة، يسهل ارتكابهم أنواعًا من الأعمال الوحشية التي تدفع المراقبين

إلى القول: «لا بد أنهم تعرضوا لغسيل الدماغ!». انظر إلى آخر مرة أصبحت فيها السياسة مثيرة حقًّا إنكلترا؛ تلك كانت الحروب الأهلية في القرن السابع عشر التي قتلت الآلاف؛ يفضل عديد من الناس اللامبالاة في أي وقت كان على ذلك النوع من التورط السياسي.

من سوء الطالع، السلام حلم كاذب في تلك الأجزاء العديدة جدًّا من العالم التي تسبب فيها المجموعات المحفَّزة بدوافع دينية أو سياسية الموت والإصابات والإرهاب للآخرين، وأحيانًا لأعضاء مجموعتهم نفسها. للبحث بتفصيل أكبر في الآليات التي من خلالها تستمد تلك المجموعات قوتها (التي كثيرًا ما تكون كبيرة جدًّا)، نحتاج إلى النظر في أمثلة محددة، وقد اخترت حالتين من الطوائف الدينية التوراتية الشهيرة؛ مجموعتان كان فيهما للدوافع الدينية والسياسية دور رئيس، وإن لم تكن القوة الدافعة الوحيدة. كلتا المجموعتين بدأت بمُثل نبيلة، بل حتى وكأنها مُثُل المدينة الفاضلة، وكانت أصولهما في الولايات المتحدة الأمريكية، أرض الأحرار والفخورين مؤيدي الحقوق الفردية؛ ليست قصصًا يمكن أن نلوم بها شياطين آخرين من ثقافات غريبة. انتهت كلتاهما بالقتل، وتحلل الطائفة، وفوضى من المعاناة والدمار لأقارب الضحايا. كلتاهما معروفة تمامًا بحيث إنني سأصفهما هنا بصورة موجزة فقط، لقد اعتمدت كثيرًا على وصف شيفلن وأبتون Scheflin and Opton لعائلة مانسون في كتابهما المتلاعبون بالعقل، وعلى كتاب شيفا نايبول Shiva Naipaul أسود وأبيض الذي يتعامل مع مذبحة جونزتاون Jonestown.

طوائف دينية صغيرة الحجم: عائلة مانسون Manson

عانى تشارلز ميلز مانسون Charles Milles Manson ما يوصف مجازًا بطفولة مضطربة؛ فقد كانت أمه في السادسة عشرة من عمرها عندما ولدته، ولم تُعِرْه أي اهتمام حتى عندما كانت معه خارج السجن، وقد انتقل بين مجموعة من أقاربه غير الراغبين فيه، وقضى معظم وقته بين سن التاسعة والثانية والثلاثين في مدارس الإصلاح أو السجون التي وفَّرت -على الرغم من عنفها- نظامًا مفقودًا في الحياة خارجها. طوَّر الصلابة اللازمة من أجل البقاء، واكتسب أيضًا مهارات أخرى؛ أبرزها شكل متطرف من الميل الذي على معظمنا أن يتمثل به في التلون الاجتماعي؛ أي التصرف على وفق ما يريده الناس الذين نتفاعل معهم (من منا، عندما ينظر إلى الوراء، لا يستغرب تغير تصرفه حين يكون أمام رئيسه، أو إمكاناته غير المتوقعة بأن يكون كَفِيًّا،

عندما يتطلب الأمر أن يكون كذلك؟)، علاوة على هذا الانسياب في العلاقة بين الأشخاص، طوَّر مانسون Manson أيضًا اهتمامات في الأديان والفلسفة التي لا تنتمي للتيار العام: المجموعات الدينية، التصوف الشرقي، وديانة (المعرفة).

أُطلق سراح مانسون Manson عام 1967م على الرغم من مناشداته للبقاء داخل السجن، فوجد مانسون Manson نفسه في الثانية والثلاثين، وسط الثقافة المضادة التي ميزت الستينيات من القرن العشرين؛ إذ كان هناك فجأة أناس على استعداد لأن يحبوه، ويرحبوا به، ويتشبثوا بكل كلمة يقولها (وقد مكنته دراساته من أن يحاضر بصورة مثيرة للإعجاب في الموضوعات التي يودون سماعها). منحته مهاراته في فهم ما يريده الناس وإعطائهم ما يريدون، التي شحذت في السجن بالضغوط من أجل البقاء والابتعاد عن المتاعب، السيادة السريعة على (أطفال الزهور)، وبدت قدرته على قراءة أفكارهم وكأنها خارقة للطبيعة. أنشأ (العائلة) بعد أن جمع حوله مجموعة معظمها من الإناث، ووقفت هذه العائلة نفسها للعبادة العمياء لقائدها، بل جعل أيضًا رضى مانسون Manson عنهن مهمًّا جدًّا بالنسبة إليهن، فقد وفر لهن ما يفتقرن إليه.

استمر الحلم 30 عامًا حاول خلاله مانسون Manson اتخاذ مهنة له في الموسيقى الشعبية، لكن محاولته أخفقت. لقد حقق في نهاية المطاف، ولو إلى حين، هدفه في شهرةٍ توازي شهرة فرقة الخنافس Beatles، لكنه بدأ يدرك أن ذلك لن يكون في المجال نفسه، ولا يُعرف إذا أسهم ذلك في تعميق رؤيته المظلمة، ولكن ما هو واضح أنه اتصل بمجموعات من المختلين، وأنه بدأ بالحديث عن نهاية العالم الوشيكة، وأنه بدأ باستخدام وسائل سيطرة أكثر عنفًا داخل العائلة. تقبَّل أفراد العائلة، وقد انعزلوا عن العالم الخارجي، وأصبحوا يعتمدون على مانسون Manson في ملء عواطفهم، سلطته على كل مظهر من مظاهر حياتهم. استخدم المخدرات، والاستجواب العنيف، والتكرار المستمر لتعاليمه؛ لتعزيز تلك السلطة، وبدأ بتعريف نفسه صراحة برموز دينية؛ المسيح، والرب، والشيطان، وقيادة العائلة في طقوس غريبة قيل إنها تضمنت قتل الحيوانات وشرب دمها، ومحاكاة القتل والعنف.

يبدو أن مانسون Manson قرر في مرحلة ما أن نهاية العالم القادمة تقترب بسرعة كافية، وأنها تحتاج إلى مد يد العون لها، فمن ثَمَّ وُلِد مفهوم (الهرج والمرج)؛ أي الثورة الدموية التي اعتقد أنها ستنتج نظامًا عالميًّا جديدًا، وأوكل مانسون Manson إلى عائلته مهمة تنفيذها. وخلال

ليلتين في آب عام 1969م بدأن حملتهن العنيفة بجرائم قتل شرسة لسبعة من السكان الأثرياء في لوس أنجلوس، ومن بينهم امرأة في أواخر حملها، هي الممثلة شارون تيت Sharon Tate.

مع مواجهة الأجساد المطعونة والمضروبة، وكلمات (خنزير)، و(الحرب)، وبالطبع (الهرج والمرج) مكتوبة بالدم، ووجود أدلة على أن القتلة استحممن وتناولن الطعام قبل أن يغادرن مسرح الجريمة، اتسم رد فعل الجمهور بالصدمة والرعب وعدم الفهم، وبعد الاعتقالات، جعل انعدام أي علاقة بين القتلة والضحايا ما حدث أكثر غرابة. جعل مشهد النساء الصغيرات وهنَّ يروينَ بهدوء كيف ذبحن شارون تيت Sharon Tate وجنينها، يتشبثن بأي قشة في البحث عن تفسيرات. علاوة على ذلك، واجه الادعاء العام مشكلة أن مانسون Manson لم يكن موجودًا في الواقع في أثناء عمليات القتل. بدا أن القول بأنه غسل أدمغة المخلصات له من الإناث اليافعات لقبول (فلسفة الموت) حلًّا واضحًا، ولكن تبني الادعاء العام حجة غسيل الدماغ قاده إلى معضلة؛ إذ كان هدف الادعاء هو توريط مانسون Manson بجرائم القتل، جنبًا إلى جنب مع أتباعه، من خلال الاحتجاج بأن غسيل الدماغ الذي أجراه لأتباعه كان مسؤولًا عما اقترفنه، لكن إن كانت أدمغة فتيات مانسون Manson مغسولة، فكيف يمكن تحميلهن مسؤولية جرائم القتل التي من الواضح أنهن قد اقترفنها؟ عند ذلك راوغ الادعاء العام حول القضية وساعده على ذلك إخفاق الدفاع في تأكيد هذه المعضلة، وكون المتهمات لم يظهرن أي دليل على أنهن يعانين الجنون أو نقصان المسؤولية.

أخذت محكمة الاستئناف في كاليفورنيا التي حكمت بالقضية، وجهة النظر نفسها التي أخذت بها سابقًا المحكمة في نورمبيرغ، وقالت إن ضغط الأقران، أو كون الشخص من أتباع طائفة دينية، أو الوقوع تحت تأثير قائد ذي شخصية نافذة، لا يعد كافيًا لإعفاء الشخص من مسؤوليته الجنائية، ووافقت على تحميل القائد المسؤولية، من ثم أُيِّدت إدانة المتهمين بتهمة القتل من الدرجة الأولى، وأرسل مانسون Manson إلى السجن، هذه المرة مدى الحياة.

شُحِذت مهارات مانسون Manson في التعامل مع الآخرين إلى مستوى عال جدًّا، لكن من المشكوك فيه أنه كان قادرًا على تحقيق هذه الشهرة السيئة من دون المجموعة التي التفت حوله؛ إن وجود المجموعات والآليات داخل المجموعة أمور مركزية في الأديان والسياسة، وسوف نستكشف الآليات النفسية التي تبطِّن تشكيل مثل هذه المجموعات وتطورها، لكن دعونا أولًا نتحول إلى الحالة الثانية من حالاتنا الدراسية.

الطوائف الدينية واسعة النطاق: مجزرة جونز تاون Jonestown

أُسس مجتمع جونز تاون Jonestown في العام 1977م على يد القس جيم جونز Jim Jones في أدغال جوايانا المنعزلة، وظهرت الحركة استجابة لتدهور العلاقات بين معبد الشعب الذي أسسه في العام 1956م، ومجتمع سان فرانسيسكو حيث كان مقره. كان جيم جونز Jim Jones –مثله مثل تشارلز مانسون Charles Manson– يتمتع بشخصية نافذة على الأقل في البداية؛ حيث كان أتباعه يرونه مليئًا بالحب إلى درجة تفوق ما لدى البشر. بشَّر معبد الشعب بالأخوة، والحياة المشتركة، وتقديم الدعم الاجتماعي، والشعور بالانتماء للمحتاجين، وطبَّقوا في أيامهم الأولى كثيرًا من مثلهم العليا، ونفَّذوا عددًا مثيرًا للإعجاب من مشاريع الرعاية الاجتماعية، لكن في أمريكا الواثقة بنفسها زمن الحرب الباردة، ربما يكون هذا السلوك الاشتراكي قد أسهم في خلق الشك الذي أحيطت به منظمة جونز.

لكن بالنسبة إلى أتباعه كان جونز Jones هو المسيح المنتظر الذي أرسله الرب لبناء المدينة الفاضلة. وبالفعل، فإن كثيرًا من الغرباء الذين زاروا جونز تاون Jonestown عقب تأسيسها في صيف عام 1977م، وصلوا إلى قناعة بأنهم قد شاهدوا جنة على الأرض، حتى إن بعض الذين انشقوا وتركوا جونز تاون Jonestown أشادوا بالمعايير الأخلاقية للسلوك التي عاينوها. كانت الحياة شاقة حين كان الواعظ المسيحي يكافح لبناء بلدته الزراعية، لكن جونز Jones اختار موقعه جيدًا؛ فنظرًا إلى أن هذه البلدة كانت منعزلة ويصعب الوصول إليها، فقد كان من السهل السيطرة عليها، ودَفَع الشعورُ بالعداء الخارجي، الجسدي والاجتماعي، المقيمين فيها إلى التماسك. كانت جوايانا Guyana في ذلك الوقت مكانًا مواتيًا لإجراء مثل هذه التجارب؛ إذ إنها كانت محكومة من قبل فوربس بورنهام Forbes Burnham الذي كان يزداد في دكتاتوريته،

فقد تبنت مُثلًا شبيهة بتلك التي تبناها معبد الشعب، لكن على الواقع– كما يشير شيفا نايبول Shiva Naipaul في كتابه الأسود والأبيض– أظهرت حكومة جوايانا «نوعًا غريبًا من نظام العصابات يتضمن فسادًا على أعلى المستويات وتحفيزًا فكريًّا مذهبيًّا»، وتمحورت حول شخصية بورنهام Burnham، حتى إن الحكومة أصبحت مجرد مؤسسة «لهوسه، وأوهامه وإسقاطًا لنزواته»، وكان وسواس الاضطهاد أحد هذه الأوهام: كانت الميزانية العسكرية لجوايانا وقت حصول المجزرة أربعة أضعاف ميزانية الصحة. رحَّب بورنهام Burnham بمعبد الشعب في بلده، وبالمقابل دعمه جيم جونز Jim Jones علنًا.

لكن كان هناك آخرون لم ينظروا نظرة إيجابية إلى المشروع الجديد؛ ففعليًّا، كانت إحدى السمات الرئيسة لقصة جونز تاون Jonestown هي كم أصبح النقاش واسعًا شعبيًّا. من ناحية هناك جنة، ومن ناحية أخرى نوع مرعب من الجحيم. تجمع المنشقون وأقارب أتباع جونز لتشكيل مجموعة سميت الأقارب القلقين.

يناقش شيفا نايبول Shiva Naipaul بصورة مقنعة أن التكلف في سلوك هذه المجموعة، وهوسهم في تشويه سمعة جونز كان لها دور فاعل في تصاعد الشعور بالاضطهاد داخل جونز تاون Jonestown؛ شعر المنشقون على وجه الخصوص بالاطمئنان لأنهم يملكون أساسًا أخلاقيًّا أعلى، وقوَّى ذلك معرفتهم أنهم، وقد غسلت أدمغتهم، لا يتحملون أي مسؤولية عن أي شيء فعلوه هم أو أي شخص آخر في جونز تاون Jonestown (يتساءل المرء كيف استطاعوا الانشقاق في الأساس). انتشرت الشائعات حول البلدة انتشار النار في الهشيم؛ قالوا إن جونز بارع في الخداع والتلاعب، وإنه يملك قوى شيطانية للسيطرة على العقل؛ وإنه عذَّب أتباعه، بل وإنه امتلك قنبلة ذرية ويخطط للاستيلاء على العالم.

في تشرين الثاني من عام 1978م، وبعد شهور من تنامي وسواس الاضطهاد وتصاعد المعاناة الجسدية، وصل جونز تاون Jonestown إلى طريق مسدود. مرض جونز Jones مرضًا خطرًا، وصار الحديث في البلدة عن الموت، وعن الفظائع التي ارتكبها المجتمع الأمريكي ضد السود والفقراء، وعن الاستغلال والعنصرية والفاشية وسط دعاوى قضائية ودعاوى مضادة لها، وتحذيرات من المنشقين أن جونز مسلح تسليحًا قويًّا وأنه يخطط لانتحار جماعي.

رَأَس عضو الكونجرس ليو رايان Leo Ryan وفدًا من مجموعة الأقارب المهتمين، ومن الصحفيين، في زيارة لجونز تاون Jonestown. وفي 14 تشرين الثاني هبطت طائرة الوفد في جوايانا Guyana، فنصبت شاحنة مليئة بالمسلحين كمينًا له؛ وكان عضو الكونجرس رايان أحد القتلى. بعد مضي أربعة أيام، نفَّذ جونز خطة كان التدريب عليها جيدًّا للتدمير الذاتي. ربما شعر أعضاء الطائفة المنهكون نتيجة التغذية السيئة، والمرض، والعمل الجسدي الشاق، أن المدينة الفاضلة تنزلق من قبضتهم، ومن المؤكد أن بعضهم قد ثار ضد قرار جونز القيام بانتحار جماعي بوساطة شراب السيانيد المنكه بطعم حلو؛ مات ما يزيد على تسع مئة من الناس.

علم نفس الجماعات الدينية

«المتعصبون لهم أحلامهم، ينسجون منها فردوسًا لطائفة».

جون كيتس John Keats، سقوط هايبريون.

John Keats, *The Fall of Hyperion*

تعد كل طائفة سياسية أو دينية، (بقدر ما يمكن تمييزها)، فريدة في نوعها؛ وعلى الرغم من أن الديانات الرئيسة في العالم التي بدأت طوائف دينية صغيرة قابلة للنقاش، فإن معظمها أصبح ذا طابع مؤسسي ثابت بحيث فقدت العديد من خصائصها الطائفية[5]، لكن ووفق ما أوضحت حالتانا الدراسيتان توجد بعض الظواهر المشتركة بين كل من الطوائف الدينية والديانات (على الأقل في أيامها الأولى)؛ فمن ذلك التمايز الواضح بين القائد والأتباع، والثورة ضد السلطة القائمة، والشعور بالعظمة مع سعي الحركة الجديدة لتأسيس نفسها، وتفكير الثنائيات المبسط مثل الذي لاحظه روبرت ليفتون Robert Lifton في الفكر المذهبي الشيوعي (الخير/الشر، المؤمن/الملحد، الناجي/الملعون)؛ والميل نحو التفكير في المدينة الفاضلة، وأخيرًا، تختلف الطوائف عن الديانات والمجموعات الأخرى في تكرار حدوث تدميرها لنفسها وعنفه.

القادة والأتباع

كان جون Jones –شأنه شأن مانسون Manson– قائدًا ذا شخصية نافذة يرى– ليس من دون مبرر– أنه تعرض للاضطهاد، وخلفيته مضطربة؛ أي إنه عانى الفقر، وبيئةً عائليةً مضطربة، وتعرض للتمييز، والمساوئ الاجتماعية الأخرى[6]، وبمرور الوقت بدا أن القائدين قد اقتربا أكثر فأكثر من حافة الإصابة بمرض عقلي؛ تحافظ الطوائف عادة على بيئة انفعالية، ومعزولة، ويظهر فيها وسواس الاضطهاد على نحو متزايد، تغذيها المخدرات وقوى اجتماعية قوية، ويعانون الضغوط المتزايدة الناتجة من التناقضات بين عالم الطائفة الدينية (حيث القائد هو الإله وكل شيء على ما يرام) وبين العالم الخارجي (حيث لا قيمة للقائد وكل شخص عدو)، مع ابتعاد القائد وأتباعه أبعد وأبعد عن الواقع. يَعُدُّ عادة أتباع الطائفة قادتهم آلهة، أو على الأقل مفوضين من قبل سلطة عليا (الله، القدر، قوى التاريخ، أو أي أفكار غيبية تجريدية تناسب نظرتهم إلى العالم) لتغيير الكون.

يعد العمر، الجسدي أو النفسي، عاملًا آخر يرتبط بالطوائف الدينية؛ إذ يميل كثير من الأتباع إلى الانضمام في مرحلة المراهقة أو في بداية العشرينيات، في الوقت الذي لا يكونون فيه قد أصبحوا بالغين راشدين، وإنما أشخاص غير مرتاحين تمامًا (داخل جلودهم)، ويبحثون عن الإحساس بالهوية والأمن الذي يمكن أن توفره الطائفة لهم، وكثيرًا ما يوصفون بأنهم تائهون، ويجدون صعوبة حتى في التعبير بوضوح عن احتياجاتهم، فضلًا عن تحقيقها. علاوة على ذلك، يكون عديد من احتياجاتهم محرِجًا للأفراد الأكبر سنًّا في مجتمع التيار العام الذي ترفضه الطائفة. وكما ظهر في جونز تاون Jonestown، يكون عديد من أتباع الطائفة مثاليين، لا يسعون بصدق وقوة إلى التنوير الروحاني فحسب، بل إلى مساعدة الناس الآخرين أيضًا. الطائفة ليست محض طريق للخلاص؛ وإنما هي فرصة للتعبير عن الخير في مجتمع معاد وتهكمي، وبخلاف الديانات السائدة، تكون الطائفة الدينية مفعمة بالإثارة الناتجة من رفض المجتمع للجماعة، وكذلك تختلف الطوائف الدينية الحديثة عن الأديان السائدة بطريقتين أُخريين؛ الأولى، كثيرًا ما يبدو أن الطوائف الدينية تتجه نحو الشباب، وهو ما يؤكد حداثتها وتطرفها، قد يتعلق هذا الأمر جزئيًّا بكون أعضائها عادة من الشباب، ويتعلق جزئيًّا بتقديمها قدوة عصرية للشباب، مع أنه يوجد تراث طويل من مناشدة الشباب يعود تاريخه على الأقل إلى قائد الطائفة التوراتية عازف مزمار هاملين (تعود أصول الأسطورة إلى القرون الوسطى). ثانيًا، تتحكم الطوائف تحكمًا أكثر صرامة في المعلومات، «ففي حين أن الأديان تطبق سياسة الموافقة الحرة والمستنيرة مع الذين ينضمون إليها، يكون الأشخاص الذين ينضمون إلى طوائف معينة أحرارًا عندما ينضمون، لكنهم لا يعطون معلومات عنها، وحالما يعطون المعلومات لا يبقون أحرارًا»[7].

التمرد ووسواس الاضطهاد

تتضمن الطوائف عادة رفض التعلم والسلطة القائمين (كتركيز مانسون Manson على الديانات البديلة من دين المعرفة إلى عبادة الشيطان، ونبذ جونز للرأسمالية الأمريكية). ونظرًا إلى أن هذا الرفض مرتبط بعواطف قوية، (قد يصف المفكر الفرويدي ذلك على أنه صراع أوديب، جزء من آلية حسبان الشخص نفسه شخصًا مختلفًا) يبدو أن أعضاء الطائفة الدينية يفترضون أن العالم الخارجي المرفوض سوف يشعر تجاههم بشعور مناهض قوي مماثل، وأنه سيهاجمهم،

وذلك يولد شعورًا بالاضطهاد وثيقًا جدًّا، ويمكن أن يكون مسوَّغًا في حالات كثيرة (كما في حالة جونـز تاون Jonestown)[8]. جاهدت أسـر الأعضاء –على سـبيل المثال– طويلًا من أجل اسـترداد أبنائهـم التائهيـن، سـواء أكان الأبنـاء يُعَـدون بالغين قانونيًّـا أم لا. تطورت في سـبعينيات القرن العشـرين عمليـة إعادة برمجة أعضـاء الطائفة المختطفين إلى صناعة مزدهـرة، لكنها انتقدت بشدة من قبل المراقبين؛ لكونها أكثر شبهًا بغسيل الدماغ من إجراءات الطوائف نفسها[9].

البساطة والنقاء

يميـل أعضاء الطائفة إلى شـيطنة كل شـيء خارج الطائفة؛ لذا يبـررون العنف بل ويعدونه ضروريًّا، وينظرون نظرة رهيبة إلى المجتمع بوصفه شريرًا وفاسدًا، يعدونه عالمًا يجب أن يدمَّر قبل أن يتمكن المستقبل الذي يحلمون فيه من القدوم. كان أتباع جونز قلقين من كل شيء؛ ابتداءً من الاستنساخ إلى التعقيم إلى الجراحة النفسية؛ ويعتقدون أنها جميعها أسلحة محتملة في أيدي الفاشيين العنصريين الذين سيسيطرون على أمريكا في وقت قريب، وبنظرهم فالعالم المحكوم عليه بالفناء يشـمل كل شـخص لا يشـاطرهم معتقداتهم؛ إذ إن جميع هؤلاء الناس بالنسـبة إلى الطائفـة ليسـوا أنقيـاء؛ ولهـذا ففـي عـام 1972م، ردت صحيفة معبـد جيم جونـز Jim Jones على مقالة لصحيفة معادية بقولهم: «سيضرب الانتقام أولئك الذين تجرؤوا على عبور المعبد»[10]، أما أعضاء الطائفة فهم –على العكس من ذلك– ناجون وطاهرون ما بقوا أعضاء في الطائفة. التقط الأديـب السـاخر توم لهرر Tom Lehrer، الذي يسـتهدف المغنين الشـعبيين الذيـن يكتبون أغاني احتجاجية، جيدًا هذا الموقف الذي يدين فيه المعتد بنفسه الآخرين:

«نحن جيش الأغنية الشعبية

كل واحد منا مهتم

جميعنا يكره الفقر، والحرب، والظلم

بخلافكم يا ساذجون».

لهرر Lehrer، جيش الأغنية الشعبية.

Lehrer, ‘The Folk Song Army’

التفكير المستقبلي المنحرف

تعطي الطوائف عادة، مثلها مثل الديانات، وعدًا: فكرة مدينة مثالية تصر على أن الحاضر غير مهم مقارنة بمستقبل مجيد متاح لشعب الله المختار. ومثل كثير من الأفكار المجردة، ليست رؤى الطائفة غامضة فحسب بل إنها أيضًا غير قابلة للاختبار اختبارًا مجديًا، مالم تحدد الطائفة بالطبع تاريخًا دقيقًا لنهاية العالم[11]. وبمعنى آخر، يجعل التفكير بالمدينة الفاضلة الأفكار المقدسة أكثر قداسة، ومن ثم أكثر خطورة[12]، وقد أشارت هانا أرندت Hannah Arendt إلى ذلك بالقول: «لا تكاد توجد طريقة أفضل لتجنب النقاش من تحرير النقاش من سيطرة الحاضر حجة السيطرة على الحاضر والقول إن المستقبل فقط يمكنه أن يكشف مزايانا»[13].

أصبحت نهاية العالم القادمة بالنسبة إلى ماسون Manson –كما هي الحال بالنسبة إلى جونز Jones– هاجسًا مستمرًّا، وشعر بأنه قد اُختير لبدء الثورة التي من شأنها جلب النهاية، لكن مفهومه عن الهرج والمرج لم يكن غير مسبوق؛ إذ كثيرًا ما يؤكد قادة الطوائف أسبقيةً مفترضةً؛ لكن في الحقيقة فإن الأفكار نفسها تطفو إلى السطح مرة تلو المرة، وفي الواقع عندما تقارن جرائم القتل التي ارتكبها مانسون Manson بالقالب الأساسي الغربي لنهاية العالم؛ وهو سفر الرؤيا من الكتاب المقدس (الذي تأثر مانسون Manson به كثيرًا)، فإنها تبدو محاولة صغيرة بائسة تدعو للشفقة لأداء دور الإله. في الرؤية الأصلية (من سفر الرؤيا 16)، التي أَمَل مانسون Manson أن تستهل بالهرج والمرج، هناك وعد بآلام (مثيرة للاشمئزاز ومحزنة)، وأن البحار والأنهار ستصبح «مثل دم رجل ميت»، وبالنيران، والألم والظلام، والجفاف، والرعد والبرق، وبزلازل تهز العالم، ووابل عظيم من البرد؛ تلك فعلًا نهاية عالم.

نهايات عنيفة

أخيرًا، يعد الميل إلى تدمير الذات أحد أكثر الجوانب المثيرة للقلق لدى الطوائف الدينية، فإذ يتدرج عديد من المجموعات الإنسانية من الولادة إلى النمو، فالثبات، والانحدار التدريجي؛ فإن بعض الطوائف الدينية لا تظهر ذلك النمط، وتنتهي بدلًا من ذلك بكارثة؛ إنهم معروفون أكثر من غيرهم؛ لأن هول موتهم يضعهم أمام أعين الجمهور. جرائم القتل التي قامت بها عائلة مانسون Manson، والانتحار الجماعي والجرائم في جونز تاون Jonestown، و(حركة استعادة

وصايا الله العشر) الأوغندية، وأحداث مدينة واكو في تكساس حيث احترق بناء طائفة دينية عندما هاجمتها السلطات الفدرالية والمحلية، ونظام المعبد الشمسي؛ جميعها شغلت العناوين الرئيسة في صحف العالم؛ وجميعها كانت غير معروفة خارج المجتمعات التي تتأثر بها مباشرة إلى أن اشتعلت أخبارها، وفي حالة مدينة واكو فذلك ما حدث بالضبط لا بمجاز العبارة.

تمخض القرن العشرون عن كثير من الأهوال، وكذلك فقد قدم لنا أيضًا محاولات علمية حديثة لفهمها، ومع تطور علم النفس جاءت البحوث التي طَبقت للمرة الأولى الأساليب النفسية في دراسة المجموعات البشرية، وتعلم علماء علم النفس الاجتماعي منذ ذلك الحين، الكثير حول كيفية إنشاء المجموعات والحفاظ عليها، والضغوط التي تربط الأفراد معًا أو تبعد بعضهم عن بعض. ليس هذا كتابًا مقررًا في علم النفس الاجتماعي، ولن أحاول القيام بأكثر من تلخيص لبعض جوانب الأدبيات الهائلة المكتوبة حول الموضوع[14]. وعلى الرغم من أن علم النفس الاجتماعي، لم يأخذ بالحسبان غسيل الدماغ حتى الآن، فلا يبدو هذا أوضح في أي مكان مثلما هو واضح في دراسة مجموعات مثل الطوائف الدينية.

لماذا تعد المجموعات مهمة جدًا؟

الفردية عقيدة فاعلة كان لها دور مؤثر جدًّا في تطور الحضارة الغربية. تثير رؤية الشخص لذاته في مرآته الإعجاب بكائن مستقل فخور باستقلاله، ذاتٍ صلبة كالصخر. مع هذا التأكيد، وبالنظر إلى حجم ما سأقوله عن التأثيرات السلبية لبعض المجموعات، من الجدير طرح السؤال: لماذا تعد المجموعات أساسية فضلًا عن كونها مُهمَّة، خاصة عندما يتعلق الأمر بالتعامل مع الأفكار الالغيبية التجريدية؟ تأتي الإجابة من واحدة من أكثر الحجج المؤثرة في الفلسفة الحديثة؛ نقد لودفيج فيتجنشتاين Ludwig Wittgenstein لفكرة اللغة الخاصة[15]:

> **دعنا نتخيل الحالة الآتية: أود أن أحتفظ بمذكرات يومية عن تكرار إحساس معين، ولتحقيق هذه الغاية سأربطه بالإشارة (S)، وأكتب هذه الإشارة في التقويم لكل يوم أحس فيه بهذا الإحساس.**

الإشـارة S فـي لغتـي الخاصة كلمة تصف (شـعورًا معينًـا)، أنا فقط أعرف مـا تعنيه. لكن، كيف أعرف ما تعنيه؟

هل يمكن أن أشير إلى الإحساس؟ ليس بالمعنى العادي. لكنني ألفظ، أو أكتب الإشارة، وفي الوقت نفسه أركز انتباهي على الإحساس، وهكذا _بأي حال_ أشير إليها داخليًا، لكن: لماذا هذه المراسم؟ لأن هذا هو كل ما يبدو عليه الأمر! من المؤكد أن تعريفًا ما يساعد على تأسيس معنى للإشارة. حسنًا، هذا ما يحدث بالضبط بتركيز انتباهي؛ لأنه بهذه الطريقة طبع في ذهني ارتباطًا بين الإشارة والإحساس._ لكن أن (أطبعها في ذهني) يمكن فقط أن يعني: تفترض هذه الآلية أن أتذكر الارتباط بصورة صحيحة في المستقبل.

أعرف ما يعنيه S لأنني أستخدمه بالطريقة نفسها التي استخدمته فيها سابقًا؛ أي للإشارة إلى إحساس أشعر به، لكن كيف يمكنني التأكد من أن الإحساس هو نفسه في كل من المرتين؟ يصعب جدًّا تحديد الأحاسيس، خاصة عندما يكون التحديد لقيمته، فهل من المنطقي القول إن بهجة أخي عندما يحمل ابنته بين ذراعيه هي نفسها في يومين متتاليين؟ فضلًا عن مقارنة قيمتها بقيمة بهجة أبي عندما يحتضنني؟

لا يعني تسمية الحالات الثلاث بلغتنا العامة (بهجة) أن شعور والدي يطابق تمامًا شعور أخي، وبالصورة نفسها؛ لا يمكنني التأكد من أنني أتذكر الإحساس بصورة صحيحة، ولا أستخدم S بطريقة مختلفة في كل مرة؛ بمعنى آخر:

ليس لدي في الحالة الراهنة معيار للصحة. يمكن من خلاله أن أقول إن كل ما سيبدو لي صحيحًا فهو صحيح، وهذا يعني فقط أننا لا نستطيع أن نتحدث عن (الصحيح).

لا يمكنني الاعتماد على حكمي الخاص للتحقق من أنني أستخدم S بالطريقة نفسها كل مرة؛ لأن ذلك المعيار قد يتغير من دون أن أنتبه، ومن ثم يمكنني أن أجد معيارًا مستقلًّا فقط من خلال مقارنة استخدامي باستخدام الآخرين، والمعنى ليس شيئًا غريبًا مفروضًا من الخارج؛ إذ تعني الكلمات المعنى الذي نستخدمها من أجله. يجب أن تكون اللغة تشاركية، ومشروعًا عامًّا، يكون الآخرون فيه نقطة مرجعية بالنسبة إلى كل مشارك، والأمر نفسه يصح عندما نود أن نقرر ما نشعر به حول الأفكار التجريدية الغيبية التي يعبر عنها لغويًّا قبل كل شيء؛ إذ نحتاج إلى الرجوع إلى ما قاله الناس الآخرون عنها ورأيهم فيها، ليس فقط لأن أي إنسان بمفرده لا يمكنه أن يجمع أو حتى يتأمل في المعرفة التي جمعتها المجتمعات عبر قرون من المناقشة الأخلاقية

(لماذا إعادة اختراع الدولاب؟)، بل أيضًا لأننا لا نثق بأنفسنا في تذكر أحاسيسنا (المقوَّمة كمًّا) بدقة؛ لهذا السبب يعد حلم التحكم أمرًا قاتلًا-بالنسبة إلى أولئك الذين تستحوذ عليهم وإلى ضحاياهم- عندما يصل إلى حد التطرف. نحتاج إلى أشياء (وأناس) حولنا يكونون خارج سيطرتنا؛ لأن استقلاليتهم هي السبيل الوحيد للتأكد من بقائنا على اتصال مع الواقع، وللتحقق -كما يقول فيتجنشتاين Wittgenstein- من أن أفكارنا والكلمات التي نستخدمها لتشكيلها لا تزال (صحيحة).

نحتاج إلى مجموعات من أنفسنا لكي نكون قادرين على الثقة بلغتنا، لتقويم وتذكر تقديراتنا للأفكار التي تبادلناها باستخدام تلك اللغة، لكن- وفق ما ذكرنا سابقًا- تنشأ المشكلة بالنسبة إلى أقوى أفكارنا الالتجريدية عندما تصل المجموعات إلى استنتاجات متضاربة بشأن ما تعنيه هذه المفاهيم (المتنازع عليها أساسًا)، ولسنا بحاجة إلى دخول العالم الخيالي لرواية أربع وثمانون وتسع مئة وألف للعثور على موقف تكون فيه (الحرب هي السلام) أو (الحرية هي العبودية)؛ فعالمنا مليء بها. تحاول بعض المجموعات المعنية أحيانًا التلاعب بالرأي العام بصورة متعمدة؛ لكنهم أحيانًا يصدقون بصورة حماسية لا هوادة فيها توصيفاتهم الخاصة بهم، وكثيرًا ما نطلق تعبير (طائفة دينية)، عندما نواجه مثل هذا الشغف.

تركيب الطائفة الدينية

كما ذكرنا سابقًا، فإن الطائفة مجموعة هرمية؛ ففيها عادة قائد واحد، وعدد من الأتباع (الذين قد يكون لهم أنفسهم مكانات مختلفة؛ مثلًا، يوجد المبتدئ، والماهر، والمفضل لدى القائد، وهكذا).

يقدِّم القائد والأتباع حاجات مختلفة جدًّا للمجموعة، ويستمدون منها إشباعاتهم. بلغة علم النفس، تتعلق بالقادة مسألة الشخصية الكارزمية، في حين يتعلق بالأتباع مسألة الاعتماد على شخص ما؛ كلاهما مرتبط داخل المجموعة (بأرضية معرفية مشتركة): ثروة مشتركة تجمع الأفكار، والمعتقدات، والمواقف، والمشاعر. سوف ننظر في القادة والأتباع بمزيد من التفصيل في الفصول القادمة، ولكن توجد بعض الآليات النفسية التي يبدو أنها تعمل في أنواع المجموعات،

مهمـا كان تعريفهـا اعتباطيًّـا. هنـاك بعض الآليات المشـتركة بين العديد مـن الطوائف الدينية، ونحتاج إلى النظر في الطرائق التي تستخدمها مجموعات الطوائف الدينية في فرض التطابق في المعتقدات بين أعضائها، ومقارنتها بطرائق الشموليين المستخدمة في غسيل الدماغ.

المجموعات الداخلية والمجموعات الخارجية

«الشرق شرق، والغرب غرب، والاثنان لن يلتقيا أبدًا».

روديارد كبلنغ Rudyard Kipling، أغنية الشرق والغرب.

بدءًا بأبسـط مسـتويات العمليات الحسـية إلى تعاملنا مع أفراد البشر الآخرين، فإن تجميع الأشـياء هـو أحـد الأنشـطة الأساسـية لأدمغة البشـر؛ قد تكفـي المصادفـة الزمانيـة أو التقارب المكاني، كما يُظهر عديد من الخدع البصرية، فإذا سـمعنا صوتًا في الوقت الذي نرى فيه شـيئًا، فإننا نفترض أن الجسم قد أنتج الصوت، إلا إذا عرفنا خلاف ذلك. نحن نجمِّع، ونصنف، وبمرور العمـر نكتسـب مفاهيـم تصنيفيـة لا حصر لهـا، ونسـتخدم هذه التصنيفات لتسـريع تفسـيراتنا للعالـم؛ فـإذا تمكنـتُ من الحكم على جسـم جديد بأنـه عضو في صنف (القط)، فإنني أسـتطيع على الفور الوصول إلى جميع أنواع المعلومات المخزنة حول الشيء الجديد: (يأكل اللحوم)، (قد يخدش)، (لا يمكن أرجحته بسـهولة في مطبخي) من دون الحاجة إلى دراسة صفاته من جديد، وهذا يمنحني توفيرًا مهمًّا في الوقت والطاقة، وهامشًا أكيدًا للبقاء.

افتح أي كتاب رائج في علم الأعصاب، وستجد غالبًا صيغة لعبارة تفرط في إطراء التعقيد الهائل للدماغ البشـري، وهذا التعقيد يجعل الإنسـان من بين أكثر الأشـياء تعقيدًا التي يتعين على البشـر الآخريـن التعامـل معها. إذا لم نرغب فـي أن نتعثر إلى أن نتوقـف متلعثمين في تفاعلاتنا الاجتماعيـة، فنحـن بحاجـة إلـى طرائق أخرى مختصرة. سـوف نعـود إلى هذه الاسـتدلالات في الفصـل القادم، عندما نرى كيف اسـتخدمها أصحاب الإعلانات لسـلب مدخراتنـا، ونكتفي الآن بملاحظـة أن التصنيـف هـو أحد الإسـتراتيجيات التي نطمـح إليها، فإذا عرَّفت شـخصًا بوصفه عضوًا في مجموعة، فإن معرفتي عن هذه المجموعة ستصبغ رد فعلي نحوه.

ووفق ما أشار فيتجنشتاين Wittgenstein، فإن المفهوم الذي ليس له حدود مفاهيمية، وليس له مثال مضاد محتمل، ينتشر بصورة ضئيلة بحيث يصبح بلا معنى[16]. والكلمة (محتمل) حيوية

جـدًّا؛ إذ إن المثـال المضـاد قد يوجـد وقد لا يوجد، فيمكنني أن أعرِّفـك بأنك عضو في مجموعة (الأشـخاص الذين يطرحون الفضلات) على الرغم من أنني أعرف أنه من الناحية العملية ليس لهذه المجموعة مثال مضاد؛ لأن كل إنسان يطرح الفضلات.

مفهوم (الأشـخاص الذين يطرحون الفضلات) ذو معنى؛ لأنني أسـتطيع بسهولة (من دون تقييـد نفسـي بعقد المنطق) تصور إنسـان لم يطرح الفضلات قط: الأفـلام مليئة بهم. وبطريقة مشـابهة بالنسـبة إلـى المجموعـات، فـإن فعل تعريـف مجموعة (نحـن) بذاته يتضمـن إمكانية، وعادة الوجود الفعلي، للشـيء الذي ليسـت -المجموعة- هو (هم). تبدو هذه النزعة في تعريف المجموعـات الداخليـة (نحـن) والخارجية (هـم) التي يعتقد علماء النفـس الاجتماعـي أنها في صميم التحيز، أساسـية جدًّا للعنصر البشـري، بحيث إنهم يصنفون الأشخاص بوصفهم ينتمون إلـى (الداخـل) أو (الخـارج) وفـق معاييـر زائفـة بصورة مدهشـة؛ ليـس فقط الجنـس، والعمر، والمظهـر، أو المعتقـدات، بـل حتى وفـق تعيينات عشـوائية أنتجهـا علماء النفـس التجريبيون في مختبراتهم[17].

بصورة عامة، يبدو أن المجموعات الطبيعية (تلك التي لم تُشـكل تشـكيلًا لأسـباب بحثية مثـل تلـك في تجارب علم النفـس الاجتماعي) تشـجع بصورة عامـة الجاذبية بيـن أعضائها، ولا تقتصر هذه الجاذبية على الرومانسية؛ فنحن نفضل الأشخاص الذين (يمنحوننا المكافآت)[18]، والذين (يشـبهوننا في جوانب أساسـية جدًّا مثل المعتقدات، والاهتمامات، والخلفية الشخصية، والقيم)[19]، ونميل أيضًا إلى الانجذاب إلى الأشخاص (أو الأشياء) القريبين منا ماديًّا أو وظيفيًّا (كما في الفضاء الإلكتروني)، ويبدو أن مجرد واقع اللقاءات المتكررة معهم تزيد محبتنا لهم[20]. يميل البشر الذين ينخرطون في تفاعلات اجتماعية إلى مزامنة وضعياتهم، وحركاتهم، ونطقهم، وتعبيـرات وجوههـم، وعـادة مـن دون أن يدركـوا ذلـك، وهـذا يقـود إلـى تلاقـي كل من سـلوكهم ومزاجهـم، وهـي عملية سـمَّتها إلين هاتفيلـد Elaine Hatfield وزملاؤها (العـدوى العاطفية) في كتابهم الذي يحمل الاسم نفسه[21]، إذ تزيد العدوى من التشابه الذي يشعرون به ومن ثم تزيد من التجاذب المتبادل.

لذلك نتوقع أن نجد في الطوائف الدينية أن الأعضاء يشاركون الآخرين الحديث ليس فقط عن معتقداتهم واهتماماتهم، ولكن أيضًا عن خلفياتهم وقيمهم الأساسية، ونتوقع أيضًا أن نجد أن كـون المرء عضوًا في طائفة، سـيلبي الحاجات (يقـدم مكافأة) لكل من القائد والأتباع، وتفترض

التحليلات المفصلة للطوائف الدينية، مثل كتاب إيلين باركر Eileen Barker The Making of Monie، (الموني عضو في كنيسة التوحيد الأمريكية). أن هذا هو الواقع.

سواء تكونت المجموعة بصورة طبيعية أم لا، فيمكن أن يكون لها تأثيرات كبيرة في التفكير والسلوك. يبدو أن الناس يفكرون عند الانضمام لعضوية مجموعة من منظور نسبة التكاليف إلى الأرباح، ويزنون المكافآت التي يتلقونها من العضوية بالجهود التي يبذلونها في أنشطة المجموعة، ويمكن أن يقودهم ذلك إلى بذل جهود هائلة للانضمام إلى مجموعة ما أو إلى الهروب من أخرى. (يمكن أن تؤثر مثل هذه الجهود في كيفية تقييم عضوية المجموعة: المجموعات التي يصعب الانضمام إليها تتطلب التزامًا أكثر، وهذا سبب وجود بعض الطقوس الاستهلالية المخيفة في بعض المجموعات)[22]. عندما يصبح الأشخاص أعضاء فإنهم يستمرون في التأثر في المجموعة عبر معاييرها وأدوارها. وقد أشار باركس وسانا Parks and Sanna في كتابهما أداء المجموعة وتفاعلها إلى الآتي: «تخبرنا معايير السلوك ما الأفعال التي يتحملها أو لا يتحملها أعضاء المجموعة الآخرين». يعيَّن عادة لأعضاء المجموعة أدوار أيضًا

تحدد مجموعات من السلوكات التي يتوقع منهم تنفيذها؛ من ذلك -على سبيل المثال- أن يصبح أمين صندوق لجمعية خيرية. تخدم معايير السلوك والأدوار الوظيفة الاستدلالية نفسها، مثل عملية التصنيف التي وصفت سابقًا: إنها تسرِّع وتذلل العلاقات داخل المجموعة، ما يجعل المجموعة أكثر فاعلية وأكثر راحة للبقاء فيها.

كل كائن بشري عضو في مجموعات عديدة متميزة، وتختلف المجموعات في مقدار ما يشغله أعضاؤها من المشهد المعرفي؛ أي الأهمية التي يعطونها لكل عضو. ينظر إلى عضوية فريق واحد لكرة قدم من الهواة بطريقة مختلفة جدًّا من قبل لاعب له طموحات بعيدة المدى وزميله الذي يود فقط القليل من تدريبات اللياقة، وكذلك قد تعني العضوية في مجموعتين مختلفتين شيئين مختلفين عند الفرد نفسه، فشقيقة زوجي قد تعرف نفسها بأنها (محاسبة) و(مقيمة في بيرمنجهام)، لكن تعريفها الأول يمثل هويتها أكثر من الثاني. تشغل الطوائف وقت أعضائها وطاقتهم أكثر بكثير مما تفعله كثير من المجموعات التي نراها كل يوم: يبدو أنها تشغل كثيرًا من المشهد المعرفي للمشاركين فيها، بل وتستولي عليه.

الذات وعالمها

«لكن الرجل، الرجل الفخور
المزهو بسلطته القصيرة القليلة،
أجهل ما يكون بأكثر ما أكد له
جوهره الزجاجي».

وليم شكسبير William Shakespeare، مسرحية الصاع بالصاع Measure for Measure.

ترتبط فكرة المشهد المعرفي- الفضاء النفسي الذي يسكنه كل واحد منا- ارتباطًا وثيقًا بفكرة (أنفسنا)، ومثلما أننا أعضاء في مجموعات مختلفة عديدة، فإننا نعرِّف ذاتنا بأساليب مختلفة. بقي سؤالُ ما هي الذات حقيقة سؤالًا فلسفيًّا مهمًّا لقرون عدة، وقد تصورها رينيه ديكارت René Descartes في التراث المسيحي على أنها ذات عقلية وحدوية، وهي وجهة نظر سميتها مجازيًّا (العقول الألماسية)[23]. تنظر الأفكار الحديثة إلى الذوات على أنها أكثر تعددية وقابلية للتغيير، وسوف أعود إلى هذا الموضوع، لكنني أكتفي الآن بالقول إن النظرة إلى الذات التي تبنيتها في هذا الكتاب تتماشى مع الخط التعددي: سأعرِّفها على أنها المجموعة الكاملة للمعتقدات كلها التي يحملها دماغ منفرد، وهذا يعني أننا نعرِّف أنفسنا جزئيًّا فقط (كعالم) أو (مواطن بريطاني)، أو أي شيء آخر، وهذا أمر مقصود؛ لأنه فضلًا عن الوقت الذي يستغرقه سرد معتقداتنا كافة، فإننا لا نريد أن ننظر إلى أنفسنا على أننا أفراد (يطرحون فضلاتهم) مثلًا، لكن العضوية في مجموعة، سواء أدركت أم لم تدرك، تكوِّن جزءًا كبيرًا من مشهدنا المعرفي، وتكوِّن المعتقدات حولها كثيرًا من ذاتنا، ولهذا مضمون مهم؛ فكلما ازدادت قيمة المجموعة بالنسبة إلينا، ازداد احتمال أن نتصرف وكأن المجموعة مكافِئة (لذاتنا)، بافتراض أن المكافآت أو الأخطار التي تواجه المجموعة تفيدنا أو تهددنا.

من بين أفضل النتائج التي توصل إليها علم النفس الاجتماعي النتائج المتعلقة (بالتحيزات التي تخدم الذات)، فنحن نُؤثِر أنفسنا بصورة واعية عندما نعتقد أننا نستطيع النجاة من دون محاسبة، وفي كثير من الأحيان من دون وعي، سواء كنا نتشارك في الموارد أو نشرح أفعالًا، وينطبق ذلك على ما نَعُدُّه امتدادًا لنا؛ أي مجموعاتنا الداخلية المحببة لنا؛ فمثلًا نميل إلى أن نعزو نجاحنا الخاص (أو نجاح أعضاء المجموعات الداخلية) إلى عوامل داخلية (مهارتي جعلتني أحصل على الوظيفة)، في حين نعزو نجاح عضو في مجموعة خارجية إلى عوامل خارجية

(الـذي أجـرى المقابلة معـه يلعب الجولف مـع والده)، أما حيـن يتعلق الأمر بالإخفـاق، فالقصة تكون معكوسة ((كان من أجرى المقابلة متحيزًا ضدي)، في حين (لم يحصل هو على الوظيفة لأنـه كسـول)). يتبـدَّى هـذا التفضيـل للمجموعة الداخلية وتشـويه سـمعة المجموعـة الخارجية بصورة واضحة جدًّا في القوة القاتلة لبعض الأحكام المسـبقة التي يمكن أن تأخذ شـكلًا متطرفًا فـي الطوائف الدينية، مع تمجيد المجموعة الداخلية بوصفها (أطفال الرب الناجين)، وشَـيْطنةِ المجموعة الخارجية ولَعْنِها خارج نطاق الطائفة، بحيث يصبح المخالف مذنبًا يستحق الموت.

مـن الناحيـة التطورية، تعد هذه الآليات منطقية؛ إذ تقدم المجموعة جزءًا كبيرًا من البيئة المباشـرة للشـخص؛ ويشـجع تفضيـل أعضـاء المجموعـة بذلك النيات الحسـنة ويعزز تماسـك المجموعـة، وهـو مـا يعـرف بأنه «نتيجـة تضافر جميع القـوى التي تعمـل على الأعضـاء لإبقائهم منخرطيـن فـي المجموعـة»[24]. الأعضـاء الآخرون أكثـر احتمالًا أن يسـاعدوك في المسـتقبل إذا كنت قد سـاعدتهم في الماضي؛ لذلك من المنطقي تفضيلهم على أعضاء المجموعة الخارجية. بالنسـبة إلـى طائفة جيم جونز Jim Jones، كانـت المجموعة الخارجية معادية للطائفة منذ الأيام الأولـى لتطـور الطائفة، ووهب أتباع جونز Jones حياتهم له؛ ولم يكن منطقيًّا بالنسـبة إليهم هدر الوقـت والطاقـة فـي بناء جسـور مع عالم يسـعى -حسـبما كانوا يـرون- إلى تدميرهـم. كثيرًا ما يعادي النـاس الأشـخاص الذين يختلفـون معهم في أفكارهم؛ كما يبين المثـال الخيالي في رواية روبـرت هاينلايـن Robert Heinlein غريـب في أرض غريبة Stranger in a Strange Land، حيث إن اختلافات قائد الطائفة بدت مقبولة في البداية، إلا أن عدم التحمل سرعان ما انفجر.

ضغوط المجموعة

يرتبـط أفـراد المجموعـات بعضهم ببعض بعوامل متنوعـة، من ضمن ذلك نجـاح متصور للمجموعـة فـي تحقيـق أي أهداف قد تكون وضعتها (أو أحيانًا الإخفاق في ذلك، كما يشـهد كثير من مشـجعي كرة القدم)، هذه العوامل هي قيمة المجموعة بالنسـبة إلى أعضائها، والمدى الذي تتسـق فيـه أهـداف المجموعة مع أهداف الفـرد، والحب المتبـادل بين الأعضـاء، وقوى خارجية (المـدى الذي تتحقق فيه الأهداف الشـخصية بسـهولة أكبر خارج المجموعـة أو داخلها)[25]. بعد أن يلتزم الأعضاء بالمجموعة، يعدِّلون معتقداتهم وقيمهم لتصبح أكثر مشابهة لما لدى الأعضاء

الآخرين؛ فالخلافات تضغط على الأعصاب وتهدد فكرة التضامن، وهذا ما يؤدي من ثم إلى إحدى أكثر المشكلات شيوعًا في تفكير الطوائف الدينية: الانسلاخ عن الواقع.

يميل أعضاء الطائفة الأدنى مستوى إلى حرف معتقداتهم باتجاه معتقدات الأعضاء الأعلى مستوى، وخاصة قائد الطائفة؛ ولا يحدث العكس. إذا كانت معتقدات القائد متطابقة إلى حد بعيد مع ما هو عليه العالم في الواقع، فسوف يفيد ذلك الأعضاء الآخرين؛ إذ سيمثل مشهدهم المعرفي الواقع بصورة أكثر دقة، غير أن القادة -لسوء الطالع- كثيرًا ما يؤمنون بمعتقدات بعيدة جدًّا عن مطابقة الواقع، وتصبح أكثر تطرفًا مع تشجيع الأتباع لها. إن ولع عديد من القادة بالأفكار المجردة والغامضة، ومن ثم غير قابلة للنقض، يمكن أن يقلل كثيرًا من احتمال نجاحها في اختبار الواقع، في حين تعني السيطرة المحكمة على المحيط الذي تحيط به الطوائف أفرادها أن معظم عناصر الواقع المتاح للاختبار تقدمه بيئة المجموعة. يشاهد ذلك في ظاهرة التفكير مثل الجماعة الذي يُزعم أنه قد حدث عند إخفاق عملية خليج الخنازير المعروفة؛ إذ أدت سلسلة القرارات الكارثية التي اتخذتها حكومة الولايات المتحدة إلى تصاعد التوتر بين الولايات المتحدة وكوبا، وهو ما قاد إلى شفير حرب نووية، فقد أسهم كل من: الشخصية الكارزمية للرئيس الأمريكي جون ف. كنيدي John F. Kennedy، والطبيعة المغلقة للاجتماعات الحاسمة، والإدانات القوية المضادة لروسيا لدى صناع القرار، وأهمية الأفكار المجردة مثل (مستقبل العالم الحر)، أسهمت جميعها في وضع تقويم للحالة السياسية كان بعيدًا جدًّا عن الواقعية وعلى وشك أن يكون قاتلًا[26].

تكون الطوائف عادة متماسكة جدًّا، ويشترك أعضاؤها في عديد من المعتقدات، ويؤدون الأعمال الرتيبة والطقوس نفسها، حتى إنهم يرتدون أحيانًا اللباس نفسه. تجعل العواطف الناتجة من وضع الطائفة، والطبيعة المبسطة لكثير من عقائدها، معتقدات الطائفة بسيطة بصورة مغرية، وتجعل الضغوط قوية جدًّا للاحتفاظ بها. عندما يلتزم شخص بمعتقد ما، لا يكون التخلي عنه مريحًا في أي من الحالات؛ لأنه تخلٍّ عن جزء من هوية الشخص الخاصة، وبمواجهة عدم قبول الأصدقاء المقربين والقادة المحترمين، يمكن أن يكون الابتعاد عن الجماعة أمرًا مستحيلًا. عندما تصبح المجموعة أكثر تماسكًا، وتصبح أهميتها في حياة أعضائها أعظم، يزداد أيضًا الاختلاف بين المجموعة والعالم الخارجي، وتميل المجموعة لممارسة سيطرة حدودية مشددة على نحو متزايد لحماية نفسها من اختراق الآخرين، ويمكن أن يتضمن ذلك سلوكًا منحرفًا -مثل

تعليقـات بـاردة، أو كراهيـة الغرباء، أو العدوانية- تجاه أي غريب ينظر إليه على أنه تهديد، وهذا بدوره يثير عداء المجموعة الخارجية، وهو ما يعزز أكثر تماسك المجموعة نفسها.

يمكن أن تقدم العضوية في مجموعةٍ إحساسين مطمئنين: أن العضو ليس وحيدًا، وأنه ليس مسـؤولًا. يمكن في المجموعات شـديدة التماسك أن تصبح المجموعة كيانًا قائمًا بذاته له قدرته الخاصـة علـى الفعـل، التي كثيرًا ما يجسـدها القائد الـذي يتولى دور الحامـي ذي القوة الخارقة للطبيعة ويريح الفرد من الحاجة إلى اتخاذ قراراته الخاصة، يمكن أن يكون انتشار المسؤولية خلال المجموعـة واحـدًا من أخطر الظواهر في المجموعـات القوية؛ لأنه يمكن أن يخفض عتبة الأفعال العنيفـة بتخفيض القيـود الاجتماعية العاديـة (مثل الخوف من اللـوم والعقاب) التي من شـأنها عادة ردع معظم الأشـخاص. إن المعرفة النظرية بأنه يوجد أشـخاص بعيدون قد لا يوافقون على ما يعتزم المرء القيام به، مختلف تمامًا عن العيش بين أشـخاص يظهرون عدم قبولهم بوضوح. عزلت الطبيعة المغلقة لعائلة مانسون عضواتها في الواقع عن الأحاسيس المباشرة لعدم القبول، التي كنَّ يعرفن نظريًّا أنهن يمكن أن يتوقَّعن مواجهتها إذا ارتكبن جرائم. تفوقت الرسـالة الآتية من بيئتهن الخاصة على معلوماتهن المختزنة عن نظرة المجتمع إليهن بصفتهن قتلة: رسـالة أن الجرائم ستكسـبهن مصداقية اجتماعية ومكاسـب ضمن المجموعـة، وأن الضحايا المفروضين ليسوا بشرًا (وليسوا منا)، وأنهن لم يكنَّ فعليًّا، بصفتهن أفرادًا، مسؤولات عن الجرائم.

هل الطوائف الدينية شمولية؟

ناقش الفصـل الأول المعاييـر التـي وضعها الطبيب النفسـي روبرت ليفتـون Robert Lifton لتقويم كون نظامِ اعتقادٍ ما شموليًّا أم لا (انظر الجدول 1، صفحة 35)، يمكننا بوساطة استخدام هذه المعايير رؤية أن عديدًا من أخطر الطوائف الدينية يمكن وصفها بالشـمولية. السـيطرة على المحيط والتلاعب الغيبي مظهران نموذجيان، تسهلهما طقوس الطائفة، وأيضًا خاصية الانعزال الفعلـي المميـز لعديد مـن الطوائف الدينية (تعد بلدة جونز تـاون Jonestown التي تقع في أعماق أدغـال جوايانـا Guyanan jungle مثـالًا واضحًـا). تظهـر الحاجة إلى النقاء نفسـها في عديد من الطقوس، مثـل طقوس القبـول، والانقسـام الثنائي الحـاد بين المجموعـة الداخليـة والمجموعة الخارجيـة، وتشـغل عبـادة الاعتـراف جزءًا كبيرًا مـن حياة أعضـاء طوائف دينية عـدة، ويتوافق ذلك مع الطبيعة غير القابلة للتحدي لعقائد الطوائف الدينية: العلم المقدس لدى ليفتون Lifton.

يحدث تحميل اللغة في كثير من الأحيان، كما يظهر في لمحة سريعة على أدبيات الطوائف الدينية، وكثيرًا ما يتوقع من أعضاء الطائفة أن يهبوا حياتهم إن دعت الضرورة للحفاظ على الطائفة. تترافق صدارة العقيدة عند الشخص مع سلب الوجود؛ الحق الممنوح لعديد من قادة الطوائف الدينية في تقرير مصير أتباعهم.

هل أعضاء الطوائف الدينية مغسولو الدماغ؟

تبيَّن في الفصل الأول أن لغسيل الدماغ عددًا من المظاهر: الإهانة، ووجود آلية، والرمز (فكرة تجريدية مقدسة)، أو مفهوم الملاذ الأخير. تُغوينا الطوائف الدينية التي يعرِّفها معظمنا بسهولة على أنها مجموعات خارجية، بأن نهينهم، وغالبًا ما نبحث عن التفسير السهل والكسول عندما نواجههم، مستخدمين اصطلاحًا مثل (غسيل الدماغ) الذي يدل على أنهم مختلفون، ولكننا في الحقيقة لا نفهمهم. اكتسب المصطلح نفسه (طائفة دينية) دلالات سلبية، في حين أنه توجد في الواقع أدلة على أن بعض الطوائف على الأقل توفر عضويُتها فوائد كثيرة: كتخفيض المعاناة النفسية، وتحسين الرفاهية العاطفية، وتعاطٍ أقلَّ للعقاقير، ووجبات غذائية أكثر صحية، وأنماط حياة أقل توترًا[27].

يزيد كثير من الطوائف توتر أعضائها بالمطالبة المتطرفة بتغيير نمط الحياة -كالتخلي عن متاع الحياة الدنيا على سبيل المثال- لكن الطوائف توفر أيضًا آليات تخفف الكرب؛ مثل التغذية الراجعة الإيجابية القوية من الأعضاء للآخرين في المجموعة. لوحظت في الفصل الأول أيضًا ميزات عدة كثيرًا ما توجد في حالات غسيل الدماغ المزعومة، من ضمنها استخدام العواطف، والطبيعة الغريبة للمعتقدات التي قد تُتَبَنَّى، ومن الشائع في الطوائف الدينية وجود أنظمة عقائدية لا ترتبط بالواقع، أو ليست في مصلحة المؤمن؛ فقد انتهى أتباع مانسون Manson في السجن، وأتباع جونز Jones بالانتحار، وكثيرًا ما يبدو التغيير الذي يحدث ضخمًا (قد نقرأ مثلًا عن رأسماليين ملتزمين تخلوا عن ممتلكاتهم جميعها من أجل رؤية اشتراكية فاضلة)، على الرغم من أن هذا الانطباع قد يكون سطحيًّا إذا كانت هناك حاجات أعمق غير مشبعة ترضيها عضوية الطائفة.

كثيرًا ما يزعم من هم خارج الطائفة وجود تغير في الشخصية، خلال مدة زمنية قصيرة بصورة مذهلة، وكذلك وجود صعوبات في التواصل مع الأعضاء الذين هم إما عدائيون أو لا

يقبلـون الحجـج. تسـتخدم العواطف القوية في كثير من الطوائف الدينيـة لزيادة التزام الأعضاء بمجموعتهم، وبعد أن تؤسس الطائفة، قد تطبق طرائق قسرية للحفاظ على الأعضاء في المجموعة (مثلمـا ادعـى الأقارب القلقون أنه قـد حصل في جونز تـاون Jonestown). ولكن أعضاء الطائفة -وفـق مـا يـرى مـارك جالانتـر Marc Galanter- لا يتبنون دائمًا وجهـات نظر الطائفـة المخالفة لإرادتهـم: في الواقـع، «يجب إبقاء الاتصال في التحولات الطوعيـة بطرائق خفية (أو مخادعة)، من دون إكراه الفرد على الالتزام بوجهات نظر المجموعة»، وكما لوحظ سابقًا، تختلف الطوائف الدينيـة بعضهـا عن بعض اختلافًا كبيرًا، فيسـتخدم بعضها الإكراه، وبعضها الخداع، ويسـتخدم بعضها الآخر ببسـاطة تلبية احتياجات أنـاس معينين، ويعكس معظمها شخصيات قادتها إلى حد مـا، ويزيـد القائـد المصاب أكثر بوسواس الاضطهاد -على سـبيل المثال- من خطـر أن تصبح الطائفة الدينية خطِرة.

ماذا عن الأمور التقنية: غسـيل الدماغ بوصفه آلية؟ لقد رأينا أن كثيرًا من المظاهر الأكثر رعبًـا للطوائـف الدينيـة يمكن دراسـتها بالبحـوث النفسـية الاجتماعية على تماسـك المجموعة، والترابـط العاطفـي، وانتشـار المسـؤولية. يبـدو أنـه لا توجـد آليـة معينة تسـمى (غسـيل الدماغ) منفصلة عن تلك العمليات النفسـية الأخرى، وهذا يعني أن أنماط القوى التي تعمل في الطوائف الدينيـة المتطرفـة، مثـل عائلـة مانسـون Manson وجونـز تـاون Jonestown، أشـد مـن تلـك التي يمكـن أن توجد في كثير من المجموعات البشـرية الأخـرى. إن المعتقدات بالمجموعات جزء من معتقدات الشخص عن نفسه، فكلما زادت أهمية المجموعة، فإنها تشغل مساحة أكبر في المشهد المعرفي للشـخص. إن أمثال هذه المشـاهد المعرفية موارد محدودة؛ فحتى أكثر النفوس عريكة (صلابـة) وجـودة فـي التطوير تبقـى ثروة محـدودة، وهذا يعني أنه مـع سـيطرة المجموعة أكثر فأكثر على الذات، يقل تمييز الأعضاء لأنفسـهم شـيئًا فشـيئًا على أنهم كائنات مسـتقلة، وعندما تصبـح المجموعـة هي كل ما يهم، وعندما تنتشر المسـؤولية الشـخصية فـي المجموعة، يمكن أن يحقق القائد عندئذ مسـتوى من السـيطرة الشـمولية جديرًا بلقب الأخ الكبير، فلا شـيء سـحري حـول كيفيـة حدوث ذلك؛ وُصف الهجوم النووي على هيروشـيما بمصطلحات مرعبة وحتى دينية مـن قبـل أولئـك المعنييـن (رد الفعل الشـهير لروبـرت أوبنهايمـر Robert Oppenheimer -«لقد أصبـح المـوت، مدمر العالم»- مقتبـس من الباها جافـاد جيتـا Bhagavad Gita - أغنية المبارك، وهـو نص مقدس في الديانة الهندوسـية)[28]، مع ذلك كانـت التأثيرات قابلة للتوقـع -وقد توقَّعها العلمـاء- مـن قبـل علمـاء الفيزياء الذين قدمـوا لنا الطاقة الذرية، فليس هناك سـحر في قنبلة

هيروشيما Hiroshima؛ فهي تتبع قوانين الفيزياء، كما أنه لم يكن هناك سحر في الهواء في جونز تاون Jonestown.

أما فيما يتعلق بالجانب الرمزي لغسيل الدماغ؛ حلم التحكم، فإننا بالتأكيد نرى ذلك ماثلًا في عديد من الطوائف؛ فعندما تحين نهاية العالم فالطائفة هي من سيبقى ويرث التوزيع الجديد؛ وسيموت باقي العالم، أو يستعبد في أحسن الأحوال، وأما فيما يتعلق بالحاضر، فإن قائد الطائفة يصر عادة على السيطرة الشديدة المتزايدة على حياة أعضائها، مشجعًا إياهم في كثير من الأحيان على الإشارة إليه بوصفه إلهًا أو ممثل الإله على الأرض، وبالفعل تعد هذه النزعة نحو (زحف السيطرة) خاصة مميزة للأنظمة الدينية والسياسية، وكذلك لأكثر الطوائف الدينية عنفًا وتدميرًا لذاتها[29]. باختصار، إن غسيل الدماغ بوصفه طريقة نفسية غامضة أمر فائض عن المطلوب عندما نريد أن نوضح أمر الطوائف الدينية، ومن ناحية أخرى يصبح لغسيل الدماغ صلة إذا تحدثنا عن وهم التحكم.

ما الذي يُحوِّل بعض المجموعات إلى مجموعات شريرة؟

«أنا لا أثق بمن لا يمكن التواصل معه؛ فهو مصدر العنف جميعه».

جان بول سارتر Jean-Paul Sartre، ما الأدب؟

تشير الأمثلة التي نوقشت سابقًا إلى عدد من العوامل التي تسهم في أن تصبح مجموعة ما خطِرة على نفسها وعلى الآخرين، وأحد هذه العوامل هو الانعزال؛ النفسي أو المادي. لا يجعل الافتقار إلى التغذية الراجعة من العالم الخارجي أعضاء المجموعة يجنحون إلى الانحراف في معاييرهم الأخلاقية صعبًا فحسب، بل يزيد أيضًا إحساسهم بالتهديد؛ فكما يعلم أي طفل، ملء فراغ غرفة مظلمة بالرعب أسهل من ملئها به عندما يكون الضوء منيرًا وجميع محتوياتها مرئية. بالنسبة إلى المجموعات الخطرة، يمكن أن يبدو التهديد من قبل العالم الخارجي للجماعة ذاتها مجتمعة هائلًا، وكما تظهر حالة جونز تاون Jonestown، فوسواس الاضطهاد هذا ليس دائمًا من دون مسوغ بالكامل؛ فقد يكون أعداء الجماعة المفترضين أحيانًا قادمين فعلًا للنيل منها.

حجم المجموعة مهم أيضًا؛ فبالنسبة إلى البشر يبدو أن استحواذ المجموعة على أكثر من 150 عضوًا هو نقطة تحول، ويشير روبن دنبار Robin Dunbar إلى أنه «عند هذا الحجم يمكن

تطبيق القوانين والسيطرة على السلوك الجامح على أساس من الولاءات الشخصية والاتصالات المباشرة وجهًا لوجه، ولكن يصبح هذا الأمر مستحيلًا في المجموعات الكبيرة»[30]. يبدو أنه «عندما يزيد المجتمع على 150 شخصًا، فإنه يصبح من الأصعب بصورة متزايدة التحكم في أعضائه بوساطة ضغط الأقران فقط»، وبدلًا من ذلك، يجب تطبيق نظام إدارة هرمي رسمي، وإلا فإن المجموعة ستنقسم إلى مجموعات فرعية متنافسة، وتفقد تماسكها الكلي، ومن ثَم فإن المجموعات الصغيرة أكثر احتمالًا لأن تتصرف في معتقداتها بطرائق ضارة، كما عرف الإرهابيون من شتى الاتجاهات السياسية منذ سنوات. بُني كثير من الحركات الدينية والسياسية على شكل (نيازك اجتماعية): مجموعة لبية صغيرة من المؤمنين المخلصين يسحبون خلفهم غمامة من الأتباع الأقل التزامًا (حملات حقوق الحيوان والرفق به مثال على ذلك). يدل ذلك على أن الترياق لسم المجموعة الصغيرة هو ببساطة زيادة أعدادها، والأمل في أن يحل الاقتتال الداخلي المشكلة، غير أنه لسوء الطالع، ما يحصل عادة هو أن المجموعة تنقسم فعلًا، ولكن إلى مجموعات فرعية وأحيانًا أكثر سمِّيَّة.

العامل الآخر المهم هو نوع الأفكار التي تتبناها مثل هذه الجماعات في كثير من الأحيان، إذ تميل أهدافها وشياطينها إلى أن تكون تجريدية مقدسة، ومن ثم مثقلة بالقيم، وبارتباطها بعواطف قوية فإنها تسهِّل الالتزام، وكذلك فهي تدعم إحساس المجموعة بالتفوق، حيث إنها ناجية في حين أن جميع من حولها ملعونون، ومع ذلك يترافق هذا الشعور بالامتياز مع إدراك حي بالتهديد الكامن في كونها نقطة ضوء صغيرة وسط بحر من الظلمات (في الفصل الخامس سيظهر مرة أخرى هذا المزيج الخطِر من التقدير العالي والتهديد لهذا التقدير، عندما نبحث خصائص المجرمين الذين يلجؤون بسهولة إلى الاعتداء الجسدي)، ويساعد هذا الإحساس بالتهديد على ترابط المجموعة أكثر.

نعود إلى الدين والسياسة، حيث كثير من مفاهيمهما الجوهرية مقدسة، مصممة مثاليًّا لرفع الحرارة العاطفية للمؤمنين بها، تتكيف العديد من المجموعات التي تكون مفاهيمها المحورية مقدسة، لرفع درجة حرارة العواطف لدى المؤمنين بها، وربما يكون هذا هو السبب في ارتباط الأعمال الوحشية في كثير من الأحيان بدوافع دينية أو سياسية، لكن الخطورة تكمن في الطبيعة المجردة والغامضة، وليس في محتواها المعين. كثيرًا ما يدين الملحدون الملتزمون الدينَ لأنه السبب في قتل أعداد كبيرة من الناس، ويستشهدون بالحروب الدينية والإرهاب الأصول[31]، لكن

أسوأ جرائم القتل في تاريخ الإنسان التي ألحقت العار بالقرن العشرين، قد غذَّتها معتقدات اشتهرت بمحتواها الإلحادي؛ فقد شهد عهد جوزيف ستالين Joseph Stalin المرعب قمعًا على نطاق واسع للمؤسسات الدينية، فضلًا عن مقتل الملايين، والثورة الثقافية التي قدِّر عدد قتلاها بعشرات الملايين، قادها ملحد هو ماو تسي تونغ Mao Tse-Tung؛ ويتذكر الناس الخمير الحمر في كمبوديا Khmer Rouge بسبب حقول القتل التي كانت لديهم، وليس بسبب عقيدتهم.[32] أي دين يحمل في وجدانه هذا الكم من الدماء؟ كانت هذه المذاهب الفكرية النازية، والسوفييتية، والصينية، والشيوعية الكمبودية، قاتلة على الأقل جزئيًّا، لأن أفكارها كانت تجريدية مقدسة، وليس لأن هذه الأفكار كانت (إلحادية) أو (دينية)[33]، وينطبق هذا الجدل نفسه على السياسة، فتلك المذاهب الفكرية (مجموعات، أفرادًا) التي تعتمد على الأفكار الغيبية المجردة، ومن ثم تسهِّل التفكير الشمولي، أكثر خطورة من تلك التي لا تعتمد على مثل هذه الأفكار.

الخلاصة والاستنتاجات

المجموعات مظهر أساسي للوجود الإنساني، وكثيرًا ما تفيد أعضاءها وتريحهم؛ فيمكن أحيانًا أن تقدم العضوية في طائفة دينية ما في الغرب، على الرغم من تبنيها طريقة حياة مختلفة تمامًا عن المحيط الرأسمالي، فوائد كبيرة لكل من الصحة النفسية والصحة الجسمية، بحيث تكاد تبدو اختيارًا منطقيًّا، وترياقًا صالحًا للرأسمالية.

لكن حقيقة تبني الطوائف الدينية روايات مختلفة عن المجتمعات التي تعيش فيها تتحدى افتراضات تلك المجتمعات، وتحرِّض ما يمكن أن يكون عدائية متطرفة، خاصة لدى أقارب أعضاء الطائفة الدينية. أوجدت الحركة المضادة للطوائف مصطلح غسيل الدماغ، وبتلويثه منذ ولادته بنتانة دعائية، صار عصا نافعة لضرب أعدائها.

لا تخلو مخاوف الحركات المضادة للطوائف الدينية من بعض المسوغات؛ إذ يمكن أن تصبح المجموعات أحيانًا، خاصة الصغيرة منها، خطِرة جدًّا، ويمكن أن يحدث ذلك خاصة عندما تكون متماسكة جدًّا، وعندما تكون عضوية المجموعة مهمة جدًّا للأعضاء الأفراد (ربما بسبب اضطهاد تخيلي أو فعلي من قبل المجموعة الخارجية)، وعندما تقترن الأفكار المجردة، غير القابلة للطعن، بالعواطف القوية جدًّا. ولما كانت الأفكار المجردة الغامضة، والعواطف

القويـة، تميز أنظمة الاعتقاد الدينية والسياسـية، فإنهـا ترتبط غالبًا بالمجموعات الخطرة؛ تلك التي يكون أعضاؤها مستعدين لمهاجمة أعضاء المجموعات الخارجية أو قتلهم.

كثيـرًا مـا تُظهِـر مثل هـذه المجموعات فكرًا شـموليًّا، وتسـتخدم عـددًا مـن الآليات لجذب أعضـاء جـدد والحفاظ عليهـم، ويمكن أن يكون بعض هذه الآليات قسـريًّا بوضوح شـديد، بحيث تستجذب تسمية غسيل الدماغ، لكنها كلها تبدو قابلة للتفسير بمفردات نفسية اجتماعية. وتكشف النظرة الفاحصة في كثير من الأحيان وجود آليات عمل مميزة للمجموعة، وتوضح الطريقة التي من خلالها تلبي العضوية في مثل هذه الطوائف الدينية أعمق احتياجات كل من القادة والأتباع.

سـوف ننظـر فـي الفصول اللاحقة إلـى الطرائق التـي يمكن من خلالها تقليـل أخطار هذه المجموعـات، وسـوف نبحـث بالتفصيل الخصائص التي تجعل من بعض الأشـخاص قادة وتجعل الآخريـن أتباعًـا؛ وسـوف نعـود إلى حلم التحكـم، لكن سـننظر أولًا في مزاعم غسـيل الدماغ في حالتين أكثر شيوعًا في الواقع: الإعلانات ووسائل الإعلام، والتعليم.

obeikan.com